

المن بالإمامة

تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين

تأليف
عبد الملك بن صاحب الصلاة
(594 هـ - 1198 م)

تحقيق
الدكتور عبد الهادي التازي



الطبعة الأولى 1964
الطبعة الثانية 1979
الطبعة الثالثة 1987

دار الغرب الإسلامي
ص.ب: 5787 - 113
بيروت - لبنان

تقديم

عبد الهادي التازي

كان في صدر الذين نعوا على المغاربة إهمالهم تاريخ أعلامهم ومعالمهم وإغفالهم تخليد مفاخرهم ومآثرهم، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المراكشي من رجال القرن السادس الهجري. ونعتقد أن ذلك الشعور منه كان بمناسبة عزمه على تأليف موسوعته المشهورة: «الذيل والتكملة»، فعندئذ أحس بالفراغ المهول حول الموضوع، ومن هنا نقل عنه صاحب كتاب «مفاخر البربر» هذه الكلمات: «لقد كان بفاس من الفقهاء الأعلام الأجلة أعيان الأنام ما ليس في غيرها من بلدان الإسلام، إذ هي قاعدة المغرب ودار العلم والأدب، لكن أهلها أهملوا ذكر محاسن علمائهم وأغفلوا تخليد مفاخر فقهائهم»[1]

وربما كان - أي عبد الملك - هو المقصود عندما ردد العلّامة سيدي العربي الفاسي في كتابه مرآة المحاسن قوله عن جماعة من العلماء «وسموا المغاربة بالإهمال، ويدفنهم فضلاءهم في قبري تراب وإهمال، فكم فيهم - يقول صاحب المرآة - من فاضل نبيه، طوى ذكره عدم التنبيه، فصار اسمه مهجوراً، كأن لم يكن شيئاً مذكوراً»[2]، وقد شعر بصدق هذا العتاب وإدراك دواعيه سائر الذين قدّر لهم أن يتحدثوا عن المغرب، وهكذا قرأنا لأبي علي اليوسي في محاضراته بعد نصف قرن ترديداً لكلام شيخه سيدي العربي مضيفاً

(1) نبذة تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى، منتخبة من المجموع المسمى بكتاب مفاخر البربر لمؤلف مجهول الاسم ألف سنة 712 - نشر ليفي بروفنصال، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الجزء 1 الرباط 1352 — 1934

(2) المرآة ص ٤

الى ذلك « أن الأعتناء بالأخبار والوقائع والمسانيد ضعيف جداً في المغاربة إذ غلب عليهم الاعتناء بالدراية دون الرواية »[1] ثم قرأنا للكتاني في «السلوة» : «أنه لقلة اعتناء أهل هذا المغرب بالتاريخ ضاع أكثرهم وخفي على كثير من الناس جمهورهم ومعظمهم » وقد عزز صاحب السلوة هذه الفكرة بقول عن سيدي عبد السلام القادري في تقييده حول التعرف بابن أبي زرع ، وبكلام صاحب (كتاب التنبيه على من لم يقع به من فضلاء فاس تنويه)[2] .

ثم كانت هذه لازمة الذين عنوا بالبحث في مصادر التاريخ المغربي سواء من الأساتذة المغاربة أو المستشرقين على السواء[3] ... والحقيقة أنها رواية من صاحب المرآة ، معنها إحساسه وقلبه اللذان كانا يتوقان إلى الاطلاع على أخبار الماضين من هذا المغرب ... لكن المزيد من المرارة التي كان يشعر بها أولئك العلماء في ذلك التاريخ قد خفت وطأتها على عهدنا فيما نظن ، فلو أتيح لهم أن يطلعوا على ما نشر لحد الآن عن تاريخ المغرب وبأيدٍ مغربية لكان عناءهم أخف وألطف ، فلقد اكتشفت بالفعل عيون جديدة أروت إلى حد ما ظمأ المتعطشين ، وظهرت منذ فجر هذا القرن وثائق تاريخية جعلت تبعة المؤرخين المغاربة أقل مما كان يتصور ، وقد تأكد فعلاً أنهم كانوا «يعتنون ويهتمون » وأنهم أصحاب «دراية ورواية » وأنهم بالرغم مما يعوق المؤرخ أحياناً عن تسجيل انطباعاته لداعٍ ما[4] من الدواعي ، بالرغم من كل ذلك ظهرت وتظهر مخطوطات هنا وهناك ، كانت الى الأمس القريب في حكم المعدوم ، وبفضل همة رجال البحث أمست اليوم في متناول الجميع وربما بلغات أخرى غير اللغة العربية

(1) المحاضرات ص 59

(2) السلوة أول ص 3 .

(3) أقرأ مقدمة الاستاذ محمد الفاسي عن كتاب المعجب ، واقرأ مقدمة الأستاذ بروفنصال لكتابه بالفرنسية (مؤرخو الشرفاء Les Historiens des Chorfa) ترجمة عبد القادر الخلادي مطبعة الرباط 1397-1977 ص 37 .

(4) لاننسى أن المرابطين كانوا يفرضون رقابة صارمة على المؤلفات ، كما لا ننسى ما قد يستهدف له المؤرخ من « معوقات » تحول بينه وبين الكلام : أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص 261

وإن في أولئك الذين شعروا بنعتهم هذا المؤرخ الكبير الذي نقدمه اليوم :

عبد الملك بن صاحب الصلاة

عرفت التعاليم الإسلامية في الشرق والغرب نظاماً دقيقاً لضبط سير البلاد الاجتماعي ، وهكذا أنشئت وظائف عديدة كان في أهمها خطة الشورى والأحكام[1] ، كما كان من بينها صاحب الأحباس ، وصاحب السوق ، وصاحب الرد ، وصاحب الشرطة ، وصاحب الخُمس[2] ، وصاحب الصلاة والخطبة ، وصاحب المظلة[3] ، وقد عرف إلى الآن نظام الدولة المغربية صاحب الوضوء ، وصاحب السجادة[4] ، وإن أقدم تاريخ ردد فيه هذا اللقب - فيما

(1) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة نشر كوديرا رقم -891 -936-984-1057-1381-1565-1755 753- 536

حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين 1957 صفحة 368 — 369 .

(2) ذكر القاضي عياض في الغنية في ترجمة عبّوبة خلف بن خلف بن محمد الأنصاري ، المعروف بابن العربي من أهل المرية (508) إن من شيوخه ابن صاحب الأحباس ، وذكر في ترجمة أبي جعفر أحمد بن سعيد اللّخمي اللورقي المتوفى سنة 516 : إنه سمع ابن صاحب الأحباس وقال في ترجمة الحافظ أبي بكر غالب بن عطية (518) إنه سمع بالأندلس من أبي بكر ابن صاحب الأحباس ، كما ذكر في ترجمة شيخه أبي القاسم عبد الرحمن العامري السبتي (502) إنه لقي ابن صاحب الخمس بصقلية ، وقد تكلم شراح الزقاقية ومحشوها في أوجها على بعض أصحاب الخطة كصاحب المظالم وصاحب السوق وصاحب الرد وصاحب الشرطة : الغنية ص 25 : الزقاقية ص 8

(3) ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيد صفحة 24 — 51 .

(4) يوجد في النظام المغربي صاحب الوضوء وصاحب السجادة وقد أدركنا من وظائف أصحاب الوضوء أنهم يخبرون الوزراء بخروج الملك من داخل قصره ، الى قبة النصر أو الى مكتبه بالمشور ، وهم الذين يبعثون من لدن العاهل لطلب الوزراء والكبراء كما أنهم هم الذين يحملون اليه الرسائل والتقارير من مختلف سائر الوزراء ، وأخيراً بواسطتهم أيضاً نعلم موظفو القصر أن السلطان قد رجع الى قصره ، أما صاحب السجادة فإنه الذي يحمل السجادة التي يصلي عليها السلطان ويفرشها في المسجد عند أوقات الصلاة ، وغالباً ما يكون أفراد هذه المهنة من أعيان الفضلاء .

ابن زيدان - الاتحاف جزء 2 صفحة 529 — 537 — 539 ، العز والصولة لنفس المؤلف 1 - صفحة 128 — 129 .

معلم ـ صاحب الصلاة ، يرجع لأواسط القرن الثالث الهجري [1] ، وانتشر بعد ذلك سواء في الأندلس أو أفريقية والمغرب[2] ، ويعني به بكل وضوح الذي يؤم بالناس في صلواتهم [3] ، ولعلهم عدلوا عن لقب الإمام المعهود حتى لا يشتبه بالإمام الحاكم . وليس من الصواب في شيء أن ندّعي أن مدلول صاحب الصلاة يعني شخصاً ألّف كتاباً يحمل اسم الصلاة [4] ، كما أنه ليس صحيحاً ضبط الصلاة بكسر الصاد مع التشديد وحذف الألف كما وقع فيه بعض المستشرقين [5] .

وعبد الملك هو ابن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي المكي أبا مروان ، وأبا محمد[6] كذلك والمعروف بابن صاحب الصلاة ، ونظراً لكونه ينتسب لمدينة باجة فإن أصل أسرته ـ كما يظهر ـ كان باجة التي كانت تضم نخبة

(1) ورد عند ابن الخشني : بينما محمد بن سحنون (ت 255) يمشي يوماً مع جماعة من أصحابه لقيه ابن صاحب الصلاة في ذلك الوقت المعروف بابن الحواجب ، فأومأ الى أذن ابن سحنون : « يا رائي ! يابن الزانية ! الى آخر القصة » .
ابن الخشني : قضاة قرطبة وعلماء أفريقية صفحة 180 .
ابن الأبار : التكملة نشر العطار الترجمة رقم 1029 .

(2) ابن بشكوال : الصلة (نشر العطار) رقم 434 — 501 — 515 — ابن الأبار : التكملة نشر كوديرا رقم 907 — 914 — 916 — 979 — 1291 ـ ونشر العطار رقم 162 — 136 — 1029 ـ ابن عذارى : البيان المغرب (مخطوط) صفحة 92 ـ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ، الثاني صفحة 134 : الحلل الموشية : ابن خلدون سادس ص 467 : عباس بن إبراهيم : الإعلام ثالث صفحة 68 .

(3) المصدر السابق رقم 140 — 157 .

(4) هكذا يترجمه الأستاذ الاسباني كوندي (Conde)

Pons Boigues : **Ensayo Biobibliografico Sobre los Historiadores, y, Geografos arabigo — Espanoles,** ed. Madrid 1898 pp. 245 — 246 N. 199

(5) هكذا قرأها الأستاذ فلوجيل Fluegel في ترجمته اللاتينية لكتاب كشف الظنون لحاجي خليفة معتقداً فيما يظهر أنها كتاب يحمل اسم الصلة ، ولعل مصدر الخطأ ما يوجد من تحريف في بعض نسخ القرطاس وبنفح الطيب : ابن أبي زرع : الأنيس المطرب طبعة فاس 2 ـ صفحة 127-128 ، المقرّي : النفح الطبعة الجديدة 3 ـ صفحة 100 .

(6) يذكر كايانكوس أن المؤلف قال أكثر من مرة : « قال المؤلف ابو عبد الله محمد بن صاحب الصلاة » وهذا ـ يقول كايانكوس ـ يظهر أن اسمه محمد لا عبد الملك ، بيد أننا نؤكد أنه لا يوجد أثر لهذا التعبير في النسخة التي بين أيدينا من كتاب المن بالإمامة .

لامعة ممن حملوا هذا اللقب الشريف[1] ، وقد نعته ابن الأبار أحياناً بالأشبيلي نظراً ـ فيما يلوح ـ لكونه استوطن اشبيلية بعد[2] ثم لا يدري أي شيء عن أوليته ولا كذلك عن نشأته وتربيته ، فإن معاجم رجال العصر الموحدي ظلت صامتة اللهم إلا ما كان من ابن الأبار الذي ترجم له في كلمة لا تتجاوز سطرين فقط لم يضف فيها شيئاً زائداً على اسمه وكنيته ولقبه ، وإلا ما كان أيضاً من ابن عبد الملك المراكشي الذي أضاف إلى هذا أنه روى عن أبي بكر بن هرون وأبي ابن مالك ، وأبي عبد الله بن عميرة وأبي علي بن الأشيري ، وهكذا لم يتعرضا لتاريخ ميلاده ، ولا كذلك لتاريخ وفاته ولا لحياته العملية . . وقد اقتصر الأول على التذكير بأنه صاحب التاريخ » ، بينما ذكر الثاني أنه صنّف تاريخ ثورة المريدين بالأندلس ودولة عبد المؤمن ومن أدرك بحياته من بنيه[3] .

غير أن دراسة كتاب «المن بالإمامة على المستضعفين » أو بالحري دراسة السفر الثاني من هذا الكتاب تضفي بعض الضوء على حياة هذا المؤرخ الكبير ، ومن حسن الحظ أن هذا المجلد ـ الذي بين أيدينا الآن ـ هو الذي يصادف طموح ابن صاحب الصلاة ودخوله الميدان ، ولذلك فهو من هذه الناحية ذو فائدة كبرى ، ومن المؤكد أن كلاً من السفر الأول والثاني كانا يتضمنان شيئاً عن حياته ، فقد تضمن كتاب البيان المغرب[4] معلومات إضافية عن حياة هذا

(1) ابن عذاري : البيان المغرب ص 93 — 94 — 95

(2) ابن الأبار : الحلة السيراء نشر الأستاذ دوزي ص 235

(3) ابن الأبار : التكملة ـ كوديرا ـ رقم 1726 ، ابن عبد الملك : الذيل والتكملة (مخطوط) الخزانة العامة ـ الرباط رقم 2646 (د) ورقة 14، تحقيق د. محمد بن شريفة ـ 9 أكاديمية المملكة المغربية 1984، ابن سودة : دليل مؤرخ المغرب الأقصى صفحة 135 - 136 .

(4) البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى كان معروفاً ـ قبل توفق رجال البحث لمعرفة حقيقته ـ تحت اسم : التاريخ المغفل La Chronique Anonyme أو (مخطوط مدريد كوبنهاغن) وهذا المخطوط جاهز الآن للطبع بمعهد مولاي الحسن بتطوان ، ويقوم بنشره السيد امبروسي هويسي ميراندة بمساعدة الاستاذين محمد بن تاويت ومحمد ابراهيم الكتاني .
Dozy : Recherches sur L'histoire et la Littérature de l'Espagne pendant le moyen age , page 310 , provençal : Documents inéd . p 93 , Basset — Terrasse : **Hes,** 1924, t **IV,** p . 17 — 28 , Provençal : **Hes.** t X, 1930, p. 49, Melchor Antuna : **Sevilla y sus monumentos,** pp 25 — 38

المؤرخ كانت مستمدة فعلاً من السفر الأول والثالث ، هذا بالإضافة الى بعض المعلومات التي أمكن تصيدها من خلال بعض المراجع التي اعتمدت ابن صاحب الصلاة في نقولها .

حياته .

لقد ظهر عبد الملك أول ما ظهر في كتابه المن بالإمامة أوائل المحرم من سنة ٥٥٧ (أواخر دجنبر ١١٦١) في مدينة قرمونة على مقربة من أشبيلية ، وكان ذلك لما فتحها الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي حفص شهيد موقعة مرج الرقاد ، فعندما دخل الشيخ عبد الله هذا مسجد المدينة وأمر بغسله بعد أن تخلص من الأسر ، وبينما هو جالس مستند الى الحائط الشرقي من جامع قرمونة والرجال يغسلون الجامع بمرأى منه ، تقدم اليه عبد الملك بن صاحب الصلاة وهنّأه بالفتح [1]، فهل في امكاننا أن نستشف من خلال هذا الخبر تاريخ ميلاده ؟ إن جل المثقفين في الأندلس والمغرب كان ممن نبغ وهو لم يتجاوز العشرين كما يدل لذلك تاريخ كثير منهم ، فهل يكون ميلاد ابن صاحب الصلاة حوالي سنة سبع وثلاثين وخمس مائة ؟ ثم بعد هذا أليس من حقنا أن نفترض أن الشاب كان آنذاك من سكان أشبيلية [2] وشارك في حروب قرمونة صحبة الجيش الذي ذهب تحت إشارة والي أشبيلية بالنيابة : أبي محمد عبد الله بن أبي حفص ؟

وقد ظهر ابن صاحب الصلاة في هذه السنة مرة أخرى عندما صدر الأمر باتخاذ قرطبة (موسطة الأندلس) مركزاً للحكم على نهج ما كان في عهد بني أمية ، وذلك على إثر المحنة التي استهدفت لها قرطبة من قبل الثوار فلقد استدعيت بهذه المناسبة جماعة كبيرة مشهورة من أعيان أشبيلية وأعيان جهاتها لملء الأطرُ التي يتطلبها تعمير قرطبة ، وكان ابن صاحب الصلاة في جملة من عين للأشغال [3] ورشح للكتابة بدوائر الحكم ، غير أنه استعفى واعتذر في حين قبل فيه غيره التزام العمل ، ولكنه ـ مع هذا الاستعفاء ـ أقام في قرطبة معدوداً

(1) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة صفحة 49 .
(2) لا ننسى ان ابن الأبار نعته بالاشبيلي في الحلة السيراء
(3) أنظر المن بالإمامة ص 64

في جملة الكتاب المرموقين ولما قدم على قرطبة السيدان أبو يعقوب وأبو سعيد صحوة يوم الأحد الثاني عشر من شوال ٥٥٧ (٢٤ شتمبر ١١٦٢) صحبة الشيخ أبي يعقوب كان في عداد وفد كتّاب اشبيلية الذين خرجوا للترك [1] بمقدم السادة .

ويخفي عنا نشاط عبد الملك ابن صاحب الصلاة منذ سنة ٥٥٧ لنجده في سنة ٥٦٠ يصحب موكب السيد أبي سعيد والي قرطبة لينزل جبل طارق حيث تم هناك الاجتماع العظيم بين السيد أبي سعيد ، وأخيه السيد أبي حفص الذي ورد لإحياء وشائج «التعاون والتواصل» بعد أن كان طرأ بعض الفتور على العلاقات بين أبي سعيد والخليفة أبي يعقوب على أثر تنصيب هذا الأخير أميراً على البلاد بعد وفاة والده الخليفة عبد المؤمن ، لقد ورد ابن صاحب الصلاة في جملة الواردين مع طلبة الحضر للتيمن بطلعة السيد أبي حفص ، وقد تقدّم ـ ضمن الشعراء الذين هنأوا ـ بقطعة شعره ، وكان الذي تولى تقديمه للسيد أبي حفص هو الكاتب أبو الحسن بن عياش الذي « بين عند السيد الأعلى مسألة وفود عبد الملك وقصوده » فوعد السيد الأعلى في شأنه «بعدة جميلة وبآمال كفيلة» [2] وما من شك في أنه يسرت لابن صاحب الصلاة وسائل النزول للعدوة لزيارة الحضرة العلية صحبة السيد أبي حفص . سيما وقد كان اقتنع بنصيحة القاضي ابن العربي بصحبة أولياء الأمر !

ومن مدينة سبتة أخذوا طريقهم على مدينة فاس حيث كانت له دون ريب اتصالات ببعض الشيوخ من سكان فاس [3] . . ومن هنا اتجه نحو مدينة

(1) انظر ص 65 من المن بالإمامة .
(2) أنظر صفحة 104 — 106 — 110 — 111
(3) يذكر صاحب الحلل الموشية ان ابن صاحب الصلاة حكى عن عبد الله بن عبد الرحمن العراقي أحد شيوخ فاس قال : كنت ببغداد بمدرسة الغزالي فدخل عليه رجل فقال أبو حامد : ممن الرجل؟ قال : من المغرب إلى آخر الحكاية ، فيظهر أن ابن صاحب الصلاة سمع هذه الحكاية مباشرة وأن هذا السماع تم هذه السنة 560 ، هنا يعتقد دوزى أن عبد الملك بن صاحب الصلاة كان ورد على العدوة منذ سنة 542 صحبة الوفد الذى ورد برئاسة ابي بكر بن العربي لمبايعة عبد المؤمن وتهنئته لكن الذى نجزم به أن الذي قدم آنذاك هو ابو الحسن أو ابو بكر بن صاحب الصلاة لا أبو مروان أو أبو محمد ، وإن كان كل منهما مؤرخاً

مراكش حيث تم اللقاء بين الأمير أبي يعقوب ، والأخوين السيدين أبي حفص وأبي سعيد خارج المدينة فاتح رجب من سنة ستين وخمس مائة (14 مايه 1165) على أكمل غاية الظهور والسرور[1]، وقد أقام بالحضرة العلية ردحاً من الزمان ومكنه ذلك من الاستفادة من بعض كبار العلماء الذين يعملون في البلاط الموحدي من أمثال الفقيه الخطيب أبي الحسن علي بن الأشبيلي[2]، لقد سمع عليه قراءة عقيدة التوحيد[3] ، والعقيدة المباركة المسماة بالطهارة[4] ، وكتاب أعز ما يطلب[5] ، وقد كان أبو الحسن يخص عبد الملك من بين الطلبة بالسؤال ويحتفل به غاية الأحتفال ، وإذا سمع بذكره نبّه عليه بأحسن تنبيه ، ونوه به غاية التنويه[6] .

وقد استمر ابن صاحب الصلاة مقيماً بمدينة مراكش بعد أن غادرها كل من السيد أبي حفص والسيد أبي سعيد إلى جزيرة الأندلس أوائل رمضان 560 (12 يوليه 1165) حيث شاهدا موقعة الجلاب[7]، وقد ظل مرتبطاً بالقصر

* عباس بن إبراهيم : الأعلام ثالث ص 68 ، ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ثان ص 143 (التعليق)

ابن خلدون سادس : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول نشر الاستاذ يسوع علوش 1936 ص 85 — 86 — 122

Dozy Recherches p 112

Huici : H . Es — Tamuda, Vol II, Fasc 1961 , p III

(1) المن بالإمامة ص 112

(2) هو علي بن محمد بن خليل المكي بأبي الحسن ، كان من المبرزين في علم الأصول الى جانب أنه كان يعد من الخطباء الموهوبين : ابن الأبار : التكملة - كوديرا - ص 668 — 669 رقم 1862 .

(3) هي المسماه بالمرشده وهي مكتوبه باللسان العربي : بروفنصال : رسائل موحدية ص 132 . الحلل الموشية ص 89 . الاستقصاء ثان 73 — 77

(4) مجموعة أحاديث مختارة ضمنها المهدي كتابه الطهارة : المعجب : المراكشي ، نشر سعيد العريان ص 279

(5) تبتدىء أول رسالة من هذا الكتاب بقول المؤلف : « أعز ما يطلب » وقد نشر سنة 1903 ، وقدم له بالألمانيه العالم المجري جولد زيهر . الحلل الموشية ص 125 ـ احمد سلاويح ـ محمد الفاسي أزهار البساتين ص 109 — 110

(6) انظر صفحة 85 من المن بالإمامة

(7) المن بالإمامة ص 125

يلازم « السقائف » التي خصصت للكتاب والأشياخ ، ويذكر ابن صاحب الصلاة انه حضر وصول البشرى بإنتصار الموحدين على ابن مردنيش في هذه الموقعة صباح الأحد 23 ذي الحجة 560(31 أكتوبر 1165) ، ويحكى أنه تنبأ في هذا اليوم بالذات بهذا النصر ، فلقد رأى قطاً على سقف دار الخليفة يمشي وفي فمه فرخ حمام قد افترسه ، فقال لمن معه من أشياخ أهل الأندلس : الله أكبر ! هزم والله ابن مردنيش ! فقالوا : بم تقول هذا ؟ فقال لهم : « هذا القط هو شبه الأسد ، والأسد عدوي والحمام عجمي ! فقد غلبت الموحدون العجم وافترسوهم كافتراس هذا القط للفرخ[1] ! » .

ولا نعلم بعد هذا شيئاً عن مقام ابن صاحب الصلاة في مدينة مراكش ، ولكنا نعلم أن أمير المؤمنين قرر أن ينصب والياً على مدينة أشبيلية ، ولما هذه المدينة من الأهمية فقد وقع اختياره على الشيخ أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم[2] نظراً لبلائه الحسن في الجهاد والدين ، ونظراً كذلك لمكانته العلمية الكبيرة ومشاركته في علوم الآداب والتاريخ ، وهمته العليا في اقتناء الكتب ، وقع أختياره على هذه الشخصية فنصب يوم الجمعة الحادي والعشرين من جمادي الأولى 561 (25 مارس 1166) في احتفال بهيج عظيم ، وتوجه غرة جمادي الأخير من مراكش وقد عقدت له الرايات وبرز لوداعه سائر الأعيان ، وصحبه إلى أشبيلية عدد من «أهل خمسين »[3] وجملة مهمة من الكتاب كان في بينهم دون شك عبد الملك ابن صاحب الصلاة الذي سبق له أن تعرف بالشيخ في مسجد قرمونة[4] . نعم ظهر ابن صاحب الصلاة مرة أخرى بالأندلس سنة 564 (1169) بغرناطة المدينة التي أسندت ولايتها الى الشيخ محمد بن أبي إبراهيم

(1) انظر صفحة 127 — 128 من المن بالإمامة .

(2) يعتبر محمد بن أبي إبراهيم من أصدقاء ابن صاحب الصلاة الذين كان لهم تأثير على حياته . كان من المتضلعين من كتب التواريخ والمشاركين في علوم الأدب ، هذا الى هواية رائدة في اقتناء الكتب حتى ليعتبر من أصحاب الخزائن العظيمة التي تضم شتى الفنون : المن بالإمامة ص 152 .

(3) البيذق : أخبار المهدي 29-32 . المراكشي : المعجب طبعه مصر ص 188 . ابن القطان : نظم الجمان (مخطوط) الحلل الموشية ص 88-89 ـ الناصري : الاستقصا ثان ص 86 Héspers t. IV, 1924, p 28

(4) المن بالإمامة : ص49 .

بعد أن تولى باشبيلية السيد أبو إبراهيم إسماعيل ، لقد كان ابن صاحب الصلاة من الجلساء المقربين للشيخ محمد بن أبي إبراهيم إذ لم يكن كاتم سره ، وهو يحكي أنه وجد في نفسه غصة الفراق عندما دعي للشيخ ابن أبي إبراهيم لمراكش من قبل أمير المؤمنين في هذه السنة بالذات ، ولذلك فقد خرج ذات يوم إلى ضواحي مدينة غرناطة ، إلى مكان تُزينه «جداول كالصلال ، ولا تكاد ترمقه الشمس من تكاثف الظلال» ، كان هذا المكان مجلساً للشيخ ابن أبي إبراهيم ، فتحركت نوازع شوقه ، وأنشد شعراً في الموضوع يذكر فيه أيام اتصاله بالشيخ ويتمنى أن تسمح الأيام بلقاء قريب[3]

ويحتفي ابن صاحب الصلاة مرة أخرى لنسمع به أوائل سنة 566 (1170) بحضرة مراكش عندما أنعم الله بالشفاء على أمير المؤمنين ، وفي أغلب الظن أنه أي ابن صاحب الصلاة ورد على العاصمة في مهمة خاصة من رجال الحكم بالجزيرة ، قد يكون ورد ليقدم التهاني بشفاء أمير المؤمنين ، وهكذا نراه يمثل بين يدي أبي يعقوب يوم الأثنين 19ربيع الأول (30 نوفمبر 1170) ، وقد تولى تقديمه هذه المرة لأمير المؤمنين الوزير أبو العلاء إدريس بن جامع ، والفقيه أبو محمد عبد الله المالقي ، ويصف ابن صاحب الصلاة مجلس أمير المؤمنين وصفاً دقيقاً وهو « متكيء على مخاد كثيرة وثيرة قد فرشت تحته وحواليه تعبيه على القعود[1] » .

وكانت هذه مناسبة للاعتراف بخدمات ابن صاحب الصلاة الكاتب المجاهد وللوفاء له «بالعدات الجميلة والامال الكميلة » ، وهكذا خص من بين المتقدمين من طلبة الحضر «بظهير كريم بإسهام ومواساة» أعانته على الزمان وأعتبه عن الناس ، ووسم في هذا الظهير «بميسم الأولياء للأمر العزيز[2] » . . وقد ظل ابن صاحب الصلاة بمراكش طيلة أيام الأفراح التي أعقبت شفاء أمير المؤمنين وكان يتحدث عنها حديث المهتم بالأمور المتتبع للأحوال ، فوصف

(1) المن بالإمامة ص 152 — 152

(2) المن بالإمامة ص 288

(3) راجع ص 289 من كتاب المن بالإمامة

مبايعة أشياخ العرب وعامتهم وحضر الإطعام الذي قدم للوافدين بالبحيرة[1] خارج مراكش، ثم رأى رؤيا عين مشهد «تمييز»[2] العرب والموحدين بقصر الخليفة بدار الحجر[3] داخل مراكش، وتحدث عن تهافت العرب على الثياب والآلات وتسامح الخليفة وتكرمه.

ولما كان الأستعداد قد تم للغزو ، تحرك أمير المؤمنين من الحضرة بمراكش صباح السبت الرابع من شهر رجب من سنة 566 (13 مارس 1171) ، ومن دون ريب كان ابن صاحب الصلاة في ركب أبي يعقوب ، فهو يعد المراحل الواحدة تلو الأخرى ، ويسجل أدق الملاحظات في طريقه ، ويصف مصحف عثمان بن عفان وما يحمله من ياقوت وجوهر بل ويدفعه الاستطلاع إلى أن يسأل الناظمين للجواهر عن أصولها وقيمتها ، وهو بالاضافة الى هذا لا يغفل ذكر حالات السعر التي تتعرض لها «السوق المتنقلة » مع الركب الأميري ، وعندما نزلت المحلة بالمهدية ـ رباط الفتح ـ حكى ابن صاحب الصلاة عن البذل السخي الذي نال كل قبيل من لدن أمير المؤمنين فحكى عن رؤيته لشيخ من أهل بطليوس استمنح الخليفة فأعطاه مائتي دينار وثلاثمائة[4] مثقال .

ويصل ابن صاحب الصلاة الى الأندلس ، ويستمر صحبة أمير المؤمنين ويحضر تنقلاته واستقبالاته واحتفالاته وتشييده وتدشينه للمباني التاريخية بأشبيلية[5] ، ولما تقررت مناهضة مدينة (وبذة)[6] ارضاء لاقتراح أصحاب

(1) عرفت البحيرة في مراكش منذ أواخر أيام المرابطين ، لكن الموحدين عنوا بها كامل العناية واتخذوا منها مكاناً لتجمعهم .
البيذق ـ أخبار المهدي نشر بروفنصال (الترجمة الفرنسية تعليق رقم 2 ص 232 — 233)
المراكشي : المعجب ص 192 .
Gaston Deverdun Marrakech des Origines a 1912, Texte, pp 194 — 196

(2) التمييز في اصطلاح الخلفاء الموحدين يعني استعراض القوم فرقة فرقة وقبيلة قبيلة .

(3) يعني بها القصبة المعروفة بقصر الحجر أو دار الحجر ـ الادريسي : نزهة المشتاق ص 69 ـ الحلل الموشية ص 114 . Deverdun : Marrakech, 196

(4) المن بالإمامة ص 300 — 301 — 303 — 305 — 308

(5) المصدر السابق ص 320 — 321

(6) وبذة (Huette) حصن يقع على وادى على مقربة من أقليش في الشمال الغربي لمدينة قونكة على...

هلال ابن مردنيش الذي استسلم للموحدين ، كان ابن صاحب الصلاة في جملة من له «اسم ورسم في الزمام»[1] في هذا الركب العظيم وقد حصر جميع مراحل هذه الوقعة وشاهد ظروفها جميعاً، وصادفه عيد الأضحى من سنة 567 (3 غشت 1172) ـ أثناء رجوع الجيش من وبذة ـ بقنطرة أعربالة[2] حيث قضوا هناك صباح العيد في حالة مضنية ، وفي ثالث عشر ذي الحجة كان ابن صاحب الصلاة فيمن تقدم الى حصن بنيول[3] طلباً للقوت لكنه لم يجد غير تين أخضر تساوي الحبة الواحدة منه درهماً كاملاً وكان ممن استطاع ان يشتريها ، لكنها لم تغنه عن الجوع الذي كان يعض على شرسوفه فتقدم نحو بلنسية حيث انتعش وتزود والتحق بالمحلة[4] بعد ثلاثة أيام ووصل أمير المؤمنين الى مرسية أواخر ذي الحجة ، وبالرغم من أن كثيراً ممن كان يضمهم الجيش قد أذن له في الانصراف فقد ظل هو بمرسية صحبة الركب الخليفي . . ثم انصرف الأمير من مرسية إلى أشبيلية حيث وصلها في الثامن عشر من ربيع الأول سنة 568 (7 نوفمبر 1173) . ويقيم ابن صاحب الصلاة هنا حيث يحكي اهتمام أمير المؤمنين بمتابعة بناء الجامع الكبير ، والقصور الموحدية خارج باب جهور ، ولما ذهب الجيش لمنازلة شانجه[5] منوس عظيم النصارى بأبلة[6] ورجع يحيى بن أبي العلى[7] برأس هذا «العظيم» أواخر شعبان سنة 568 (15 أبريل 1173) ، كان ابن صاحب

ـ بعد خمسين كيلومتراً غرب المدينة جنوب شنمرية . الحميري ـ الروض المعطار ص 194 .

(1) انظر صفحة 370 من المن بالإمامة

(2) قنطرة أعربالة (El Puente de Gabril) المن بالإمامة ـ Huici : Historia , p. 256 .

(3) حصن بنيول (Bunol) صفحة 370 من المن بالإمامة .

(4) يعني بها في الاصطلاح المغربي كتائب الجيش المتنقلة لقضاء الأغراض الرسمية برئاسة الأمير او ولده أو ولي عهده أو أحد ولاته وقواده . ص 370 — 371 من المن بالإمامة .

(5) شانجه منوس (Jimeno Sancho) يعرف أحياناً بالقومس الأحدب وأحياناً بأبي بردعة . وأحياناً باسم شانجه منوس ، وقد كثر الحديث المعرف بهذا القائد وتحدثت بعض المخطوطات المسيحية عن هذا القائد الأبلي أيام الموحدين . المن بالإمامة ص 377 ـ ابن أبي زرع : الأنيس المطرب ثان ص 187 ـ ابن خلدون سادس ص 500 — 501 .

(6) أبلة (A vila) تقع شمال غربي مدريد

(7) هو يحيى ابن الوزير أبي العلاء أدريس بن أبي إسحاق إبراهيم ابن جامع . راجع صفحة 384 من المن بالإمامة

الصلاة حاضراً عندما كان يحيى يشرح لأمير المؤمنين ظروف الحملة الموحدية ويصف كيف تم النصر على خصوم الدولة ، الأمر الذي يدل على أنه أمسى ملازماً لمجلس الخليفة بل يظهر أن ابن صاحب الصلاة غدا ينعم بمركز مرموق في البلاط الموحدي فإننا نراه بعد ثمان سنوات من هذا التاريخ يقف الى جانب ابن الجد[1] مهنئاً للسيد أبي إسحاق والي أشبيلية بالنصر الذي أحرز عليه أمير المؤمنين سنة 576 (1181) في أفريقية ، وذلك بقصيدة ميمية[2] . . . ويختفي ابن صاحب الصلاة عنا سنتين لنجده ببلاد المغرب مرة أخرى في حملة الخليفة أبي يعقوب الى بلاد السوس لحماية المعدن من سيطرة المتمردين سنة 578 (1182)[3] مما يؤكد أنه ظل ـ منذ تسلمه لظهير الولاية ـ ملازماً لركاب الموحدين سواء في الأندلس أو العدوة ، وليس فقط هذا ، ولكنه اكتسب منزلة سامية لا تقل عن مكانة الطبيب أبي بكر بن زهر ، والفيلسوف أبي الوليد بن رشد فلقد زار بمعيتهما ـ عند الإياب من حملة السوس ورفقة الخليفة ـ زاروا قبر المهدي ، وقبر عبد المؤمن بتينملل ثم يرجع ابن صاحب الصلاة الى أشبيلية ليستقبل الخليفة عندما برز هذا الأخير إليها[4] يوم الجمعة 13 صفر سنة 580 (26 مايه 1184) ولعله كان يحاول أن يقول شعراً بهذه المناسبة لكن ازدحام الناس حال دون ذلك[5] ، وبعد هذا نراه يرافق الخليفة مرافقةً في حملته الشهيرة على شنترين[6] بالبرتغال وقد كان يتحدث في هذه المرة أيضاً في دقة عن انطباعاته وعن الأسعار في أثناء هذه الوقعة كما ينقل ابن عذاري[7].

(1) هو محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرج بن الجد الفهري سمع بلده لبلة كتاب سيبويه ، ولقي بقرطبة أبا الوليد بن رشد ، نال حظوة عند الملوك وكان حافظ المغرب لمذهب مالك ، توفي بإشبيلية سنة 586 . ابن الأبار ، التكملة كوديرا ـ رقم 825 ـ الحلل الموشية ص 34 — 122 ـ البستاني ـ دائرة المعارف ثان ص 403

(2) ابن عذاري : البيان المغرب (مخطوط) ص 108 .

(3) المصدر السابق ص 113 — 114 .

(4) المصدر السابق 126 .

(5) المصدر السابق الصفحة السابقة .

(6) شنترين (Santaren) وتقع شمال أشبونة . الحميري . الروض المعطار ص 113 — 114 .

(7) ابن عذاري 127 — 128

ويفضل استطراد عابر ـ وما كان أجلّه : ـ استطعنا أن نعرف من خلال كتاب المن بالإمامة أنه استمر على صلة ببلاط الموحدين حتى بعد استشهاد أبي يعقوب ، ولذلك فهو يتتبع بناء مسجد أشبيلية وبناء صومعته الشهيرة ثم تركيب التفافيح بأعلى المنار بمحضر أمير المؤمنين أبي يوسف يعقوب المنصور وبمحضر ولي عهده سنة 594[1] (1198) ، وأخيراً فإن « أبا مروان » نظراً ـ فيما يظهر ـ لكبر سنه من جهة ، وتقديراً لمركزه كعالم مجاهد من جهة أخرى نرى الخليفة أبا يوسف المنصور يشركه في الخطبة مع أبي الحكم عبد الرحمن ابن حجاج[2] بالجامع الأعظم من أشبيلية في هذه السنة نفسها[3] .

وفاته :

ولم يستطيع ابن الآبار ولا كذلك ابن عبد الملك أن يذكر تاريخاً محدداً لوفاة ابن صاحب الصلاة كما سلف أن قلت لكن الأول ذكره بين ترجمة عبد الملك بن أحمد بن نهيك الزهري الذي حدث وأخذ عنه في سنة 580 وبين ترجمة عبد الملك بن عبد الله بن بدرون الذي أجيز سنة 608 ، الأمر الذي يفيد أنه كان بين هذين التاريخين [4] ، فمتى توفي ؟ نقل سائر رجال الاستشراق ممن عنوا بتاريخ ابن صاحب الصلاة من أمثال بروكلمان[5] ، وأماري[6] ، وبونس بويكس[7] ،

(1) كتاب المن بالإمامة ص 329 — 332 — 334 — 336 — 33— 339 .

(2) هو عبد الرحمن بن عمرو بن أحمد بن حجاج اللخمي من أهل اشبيلية ، أخذ عن أبيه وجده ، كما أخذ أيضاً عن أبي مروان الباجي وناوله ، معرباً احتوت عليه حرانته ، وقد كان خطيباً بجامع اشبيلية القديم سنين طويلة ثم استعفى فأعفي ، وكان له حظ من النظم ورعه في مجالسة الأدباء ، ولد سنة 522 ، وتوفي سنة 601

ابن الآبار التكملة ـ كوديرا ـ رقم 1626 ورقم 1723 ابن عذاري البيان المغرب صفحة 201 Melchor Antuna Religion et Cultura p 25 — 38 .

(3) المصدران السابقان .

(4) محمد المنوني العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين طبعة معهد مولاي الحسن صفحة 72

(5) (Brouhelmann G.A L. Supll Ip, p 554)

(6) (Amari Bibhoteca Arabo Sicula I p X L I V)

(7) (pons Boigues Ensayo biobibilografico — 1898 pp 245 — 246)

وبروفنصال[1] ، أنه توفي سنة 578 (1182) وقد أعتمدت هذا التاريخ بعض الوثائق المنشورة حديثاً بالمغرب [2] ، والمشرق[3] ، لكن الذي يلوح أنه افتراض خطأ بل إنه ليخيل الى أنه التبس عليهم عبد الله بن صاحب الصلاة[4] ، بعبد الملك بن صاحب الصلاة ! والحقيقة أن عبد الملك امتد به العمر الى ما بعد سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، فإن ابن الآبار ينقل عنه تحقيقاً حول وفاة نحلة التي كانت سنة 591 [5] ، بل إن المقري ينقل عنه ثناء على محمد بن عبد الملك بن سعيد صاحب أعمال غرناطة وأشبيلية الذي تعرض عام ثلاثة وتسعين وخمسمائة لأمتحان مؤقت من طرف المنصور الموحدي [6] .

وادق من هذا وأقوى أن ابن صاحب الصلاة . . . بفضل الأستطراد الذي ركبه في ثنايا هذا الكتاب ـ يؤرخ لحوادث وقعت سنة أربع وتسعين وخمسمائة، وذلك كتركيب تفافيح الصومعة المتقدم قريباً[7]، فهل بعد هذا يصح أن نتمسك بالقول الذي يدعي أنه توفي سنة 1578

إن أقرب الاحتمالات لديّ أن يكون توفي أواخر المائة السادسة نظراً لصيغ ابن الآبار عند ترجمته ونظراً من جهة أخرى لكون النقل عنه اختفى

(1) ماليثيا . تاريخ الفكر الأندلسي 242 (Provençal Documents, p.693) .

(2) قائمة لنوادر المخطوطات العربية المعروضة في مكتبة جامعة القرويين بمناسبة مرور مائة وألف سنة على تأسيس هذه الجامعة إصدار الخزانة العامة بالرباط سنة 1960 .

(3) عبد الله الطباع كتاب الحلة السيراء ، دار النشر للجامعيين (بيروت 1962)

(4) هو ابو محمد عبد الله بن يحيى بن عبد الله بن فتوح بن عبد الله الحضرمي المعروف بابن صاحب الصلاة ، درس الأدب والنحو زماناً ثم نقله السلطان الى بلنسية لبنيه . ، وكان مشاركاً في الفقه والشعر محفوظ في معاجم الأدباء المتقدمين ، وقد توفي سنة 578 ابن الآبار التكملة (كوديرا) صفحة 489

(5) ابن الآبار التكملة نشر العطار 1955 ، الترجمة رقم 1879 .

(6) المقري نفح الطيب، إحسان عباس، ج 2، ص 336، وقد وقفت بمكتبة سمو الأمير المولى عبدالله تغمده الله برحمته على أصل ما نقل صاحب النفح بعضه في مخطوطة نادرة على مؤلفات أبي علي بن موسى بن سعيد المغربي المتوفى بتونس سنة 685 غير كتاب (المغرب في حلى المغرب) الذي نشره الدكتور شوقي ضيف سنة 1953-1955

(7) يذكر المؤرخ الألماني يوسف أشباخ أن أبا مروان عاش في القرن الثالث عشر الميلادي ، وأنت ترى أنه عاش في القرن الثاني عشر أشباخ تاريخ الأندلس ترجمة عبد الله عنان ، طبعة ثانية صفحة 505